

المقامات في الشعر الصوفي مقام التوبة نموذجاً

جواد غلام علي زاده
جامعة زابل، إيران

الملخص:

تعد مسألة المقامات في التصوف من أهم المباحث الأساسية التي يدرسها الفكر الإسلامي. المقامات، مصطلح يستخدمه الصوفيون للدلالة على تدرج السالك للطريق الصوفي من مكانة إلى أخرى، ومعناها: مقام العبد بين يدي الله تعالى، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانتقاع إلى الله تعالى. وقد استعان المتصوفة بالشعر للتعبير عن هذه المجاهدات والشطحات العرفانية تأثيلاً وثبیتاً لها. ويتناول هذا المقال مقام التوبة في الشعر الصوفي فقط، وذلك نظراً لكثرة المقامات وفروعها.

الكلمات الدالة:

المقام، الطريق الصوفي، التوبة، الشعر الصوفي، العبادات.

اشتغل الصوفية منذ الأوان بخصر مقامات الطريق الموصلة إلى الحضرة الإلهية وتأصيلها بردها إلى منابع الإسلام الأصيلة حيث يقول الصوفي والمؤرخ المشهور، عبد الكريم القشيري (ت 465هـ): "إن الصوفية اعتمدوا الآيات القرآنية لشرح المقامات الصوفية تدليلاً على أن القرآن الكريم والحديث أساس معتقداتهم ومصادر فلسفتهم"⁽¹⁾. وذلك من أجل إحكام مبنى الطريق، وبيان صفتها الشرعية لدرء هجوم الفقهاء ذوي النزعة الظاهرية في التعامل مع النصوص والمعاملات الدينية. ولقد استفاد شعراء الصوفية من الشعر كوسيلة لهذا الأمر وكان للمقامات نصيب مما فاضت به قريحة هؤلاء الشعراء حيث امتلأ شعر الصوفية بذكر هذه المقامات. من هذا المنطلق تسعى المقالة الحاضرة إلى تبين مقام التوبة في الشعر الصوفي وكذلك بيان الأساليب المستخدمة من ناحية الشعراء فيه.

1 - المقامات لغة واصطلاحاً:

المقامات جمع المقام من قام يقوم قوماً وقياماً وقومة وقامة. وقام: أي ثبت ولم يبرح. ومنه قولهم: أقام بالمكان، هو بمعنى الثبات. ويقال: قام الماء، إذا ثبت متحيراً لا يجد منفذاً، وإذا جمد أيضاً. والمقام والمقامة: الموضع الذي تقيم فيه. والمقامة بالضم: الإقامة. وأما المقام والمقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام. وقوله تعالى (لا مقام لكم)⁽²⁾، أي لا موضع لكم، وقرئ: لا مقام لكم بالضم، أي لا إقامة لكم. وقيل: المقام: هو المنزلة الحسنة. وأقام الشيء: أدامه. وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى⁽³⁾.

فإذا ما انتقلنا لرصد مفهوم المقام عند الصوفية، وجدناه ينطوي على هذه المعاني مع شيء من التطور المجازي فيما يتعلق بالمكان خاصة، فالمعنى اللغوي يتبنى المكان بوصفه المادي، في حين أن المفهوم الصوفي للمكان، مفهوم مجازي بمعنى الإقامة في حالة من حالات السلوك وترويض النفس، كأن تكون تدريب النفس على الزهد أو التوكل أو الورع وغيرها. يقول القشيري في تعريف المقام: "هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق بضرب تطلب ومقاسات تكلف. فمقام كل واحد في موضع إقامته عند ذلك، وهو ما مشغل بالرياضة له، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام"⁽⁴⁾. ويقول ابن عربي: "كل مأمور به فهو مقام يكتسب"⁽⁵⁾ فالله تعالى أمرنا بالتوبة والصبر والزهد والتوكل وكل هذه مقامات. وفي وصف المقام يقول ابن العربي⁽⁶⁾:

إن المقام من الأعمال يُكتسب
له التعمّل في التحصيل والطلب
به يكون كمال العارفين وما
يردُّهم عنه لا ستر ولا حجب
له الدوام وما في الغيب من عجب

الحكم فيه له والفصل والندب
هو النهاية والأحوال تابعة
وما يجليه إلا الكدُّ والنصب
إن الرسول لأجل الشكر قد ورمت
أقدامه وعلاه الجهد والتعب

والمقامات سبعة، هي كما ذكره الطوسي: التوبة، والورع، والزهد، والفقير،
والصبر، التوكل، والرضا⁽⁷⁾.

2 - مقام التوبة:

التوبة أول مقام من مقامات العارفين وهي الرجوع من الذنب في القول
والفعل، وبعبارة أخرى، هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد عن الله
سبحانه إلى قربته تعالى، أو الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محموداً
فيه⁽⁸⁾. وهو من ثمرات الخوف والحب، فإن مقتضى الحب أن يمتثل المحبوب ولا
يعصى في شيء مما يريده ويطلب من المحب⁽⁹⁾.

وفي هذا المجال يقول الغزالي: إن للتوبة ثمرتين: أحدهما تكفير السيئات حتى
يسير كمن لا ذنب له، والثانية نيل الدرجات، حتى يصير حبيباً⁽¹⁰⁾. والتوبة
الحقيقية تلازم الندم والحزن على ارتكاب الذنب وهي تحتاج إلى معرفة الذنب.
وللتوبة باعتبار التائبين مراتب ثلاث: وهي توبة العامة وتوبة الخاصة وتوبة خاصة
الخاصة ولكل منهم بواعث وخصائص، والناس فيها أربع طبقات يتباين كل
منهم عن الآخرين وللتوبة مقدمات منها: التفكير واليقظة والانتباه⁽¹¹⁾.

3 - مقام التوبة في الشعر الصوفي:

اتفق شعراء الصوفية على أن مفتاح الطريق بما فيه من منازل، ودرجات،
وكشوف، يكمن في التوبة، ولا يتأتى للمرشد شيء أصلاً دونها، ولذلك كان مقامها
أول المقامات، وعلى شرط إحكامه تتأسس الطريق. فالتوبة "أصل كل مقام،
وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهي أول المقامات، وهي بمثابة الأرض

للبناء. ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام". وقد تناول الصوفية التوبة في أشعارهم، بما يتصل بمعناها العام الموصول بالإقلاع عن المعصية، والندم، وعدم العودة إلى اقترافها، ووجهوا خطابهم بصيغة العموم إلى المخاطب اللاهبي، الغارق في بحر الخطايا، الغافل عن رؤية ربه له، مذكّرين إياه بمسارعة التوبة، والتزامها قبل فوات الوقت. يقول الحلاج (ت 309هـ) في هذا المعنى بأسلوب وعظي خال من الروعة الفنية بحيث يقترب من اللغة النثرية العادية⁽¹²⁾:

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| إلى كم أنت في بحر الخطايا | تبارز من يراك ولا تراه |
| وسمتك سمت ذي ورع ودين | وفعلك فعل متبع هواه |
| فيا من بات يخلو بالمعاصي | وعين الله شاهدة تراه |
| أتطمع أن تنال العفو ممن | عصيت وأنت لم تطلب رضاه |
| أترفح بالذنوب وبالخطايا | وتنساه ولا أحد سواه |
| فتب قبل الممات وقبل يوم | يلاقي العبد ما كسبت يده |

فالتشويق على التوبة هنا نوع من التذكير جرى على لسان الحلاج، وقد يكون تذكيرا عابرا فيمضي أدراج الرياح دون أن يجد أذنا صاغية، وقد يحدث الضد، فتلتقطه أذن واعية، وقلب يهفو لسماع كلمة تحمله على تغيير مسار حياته غير المستقيم، فيتحوّل خطاب الحلاج في شأنه إلى داع محرك يثير نوعا من القلق والاضطراب.

وقد خلد الغزالي مثل هذه البرهة الصراعية في هائيته، مصورا لوبانه النفسي بين جذبات الهوى، ونداءات الخلاص بالرجوع إلى الله تعالى، إنها هجمة الأحوال المزعجة القابلة لنقل النفس من طور النفس الأمارة بالسوء، إلى طور النفس اللوامة تمهيدا لزجّها في مقام التوبة. وكأن الغزالي في هائيته هذه يعيد علينا ترجمة اعترافاته كما سجلها في كتابه "المنقذ من الضلال" ولكنه في هذه المرة، يصوغها شعرا عبر تشخيص الصراع الدائر بين النفس والهوى، فتارة يُحكّم له، وتارة يُحكّم عليه. واعترافه بالضعف أمام هوى النفس ينطوي على إحساس عميق

بصدق المعاناة، وبرغبة الخلاص من سجن النفس ومن الخضوع لها. يقول في شطرها الأخير وهو يكتفي في صوره الفنية ببعض الاستعارات والتشبيهات الساذجة⁽¹³⁾:

| | |
|------------------------|------------------------|
| إن أنا حاولت طاعة فترت | وأظهرت وحشة وإكراها |
| صرت مع النفس في محاربة | تأمرني بالهوى وأنهاها |
| نحن كقرنين في معاركة | أدّرع الصبر عند لقيها |
| وهي بجند الهوى مبارزتي | وأى صبر يطيق هيجها |
| إن جبت بالقتال شجعها | أو ضعفت في اللقا قواها |
| أصرعها تارة وتصرعني | لكن لها سبق حين ألقاها |

إلى أن يقول في ابتهاج عارم لاستمطار التوبة وهو يستفيد فيه من أسلوب النداء والدعاء:

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| يا ربِّ عَجِّلْ لها بتوبتها | واغسل بماء التقى خطاياها |
| إن تك يا سيدي معذبها | من ذا الذي يُرتجى لرحمها |
| فالطف بها واغفر خطيئتها | إنك خلاقها ومولاها |

وإلى جانب هذا الصراع، الذي يمكن تسميته بصراع ما قبل التوبة، هناك صراع من نوع آخر، قد يؤدي إلى الارتداد والنكوص، فقد يحدث أن يخفق أحدهم في توبته، فبعد أن يلج باب التوبة، وتلوح له بارقة الاستقامة، ربما تنثني نفسه، وتأخذ بالتفلت، ويتأبى عليه انقيادها، فتتخلع من سابق عهدا غير ملوية، وتقع فيما انزجرت عنه، وفي هذه الحالة، لا تصح تسمية المقام لها، لعدم تحقق دوام الإقامة فيه، والأنسب لذلك تسمية الحال، نظراً لطوء التغير والتبدل. وقد سجل القشيري مثل هذه الحالة شعراً في مخاطبة العموم بقوله الذي نرى فيه أسلوب الطلب من الأساليب الإنشائية⁽¹⁴⁾:

أناس عصوا دهرًا فعادوا بنجلة

فقلنا لهم أهلا وسهلا ومرحبا
فلما أزلنا عنهم العتبَ ظاهرا
أعادوا لإحياء الخطيئة مذهبا
أفيقوا بذا الحق الذي كان بيننا
من العتب باقي الحكم ما هبت الصبا

ومع ذلك، وعلى الرغم من نقض العهد، والرجوع عن التوبة إلى المخالفة، فإن فرصة الإمهال للعودة، ما زالت سائحة، وباب التوبة مازال مفتوحا، فتجد القشيري يُردف التوبة بأختها، وكأنه لم يتمكن بعد من إحكام مقامها على الوجه الأكمل. يقول (15):

يا مكرمي في رجوعي ومهملي في انصرافي
جدُّ بالقبول وعودا على فتى غير واف
إن توله منك عفوا عزلت عنه يد الخلاف

من ناحية أخرى، قد يقيم التائب في توبته، ويسلس له المقام بدوام الإقامة فيه، ولكن بين حين وآخر، يعاوده الاستغفار من أمور يعدّها ذنوبا في حقه، على حين لا يراها العامة كذلك. قال الحلّاج بهذا الصدد وهو يتبع شعر الزهد والأخلاق الدينية في أسلوب الدعاء (16):

يا ربّ إني إليك مما جنيته تائب منيب
استغفر الله مستقيلا والعبد مما جنى يتوب
أرجوك بل قد وثقتُ أني من رحمة الله لا أخيب
وليس لي شافع سواها إذا أضرت بي الذنوب

فالخطاب هنا يتوجه صعدا إلى الله تعالى في مناجاة ضارعه من الأنا التائبة أصلا، أي من دائرة المقام نفسه، ولكن من منزل آخر غير منزل البداية،

والقرينة الدالة على ذلك لفظ "منيب" في البيت الأول، والإنيابة درجة من درجات التوبة؛ وهي: الرجوع عن كل شيء مما سوى الله، والإقبال على الله تعالى بالسر والقول والفعل، حتى يكون دائماً في فكره وذكوره وطاعته، فهي غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هي الرجوع عن الذنب إلى الله والإنيابة هي الرجوع عن المباحات أيضاً إليه سبحانه⁽¹⁷⁾.

الإنيابة أعلى مرتبة من التوبة حيث أن التوبة رجوع عن مخالفة حكم الله تعالى إلى الموافقة لما أراد الله سبحانه والإنيابة هي الرجوع إلى الله تعالى فهو أعلى. وقد فسّر بعض العرفاء الإنيابة بالرجوع من الغفلة إلى الذكر⁽¹⁸⁾. وقيل في التوبة على شرط الإنيابة: "المنيب: الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله"⁽¹⁹⁾. ومنهم من يذهب إلى تفصيل أدق وأشمل في معنى الرجوع، فيقول: "الإنيابة: الرجوع منه إليه لا من شيء غيره، فمن رجع من غيره إليه ضيع طرفي الإنيابة. والمنيب على الحقيقة: من لم يكن له مرجع سواه، فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبهاً لا وصف له، قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع..."⁽²⁰⁾، ففي هذه المنزلة من مقام التوبة يكون العبد فانياً عن نفسه، فبالأحرى أن يكون فانياً عن توبته، وقد قال المروي الأنصاري (ت 481هـ) أيضاً: "ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق، ثم رؤية علة تلك التوبة، ثم التوبة عن رؤية تلك العلة"⁽²¹⁾ وبذلك يصفو مقام التوبة من كل شائبة، وإليه أشار القشيري في قوله مخاطباً التوبة⁽²²⁾:

قد قلت للتوبة لما صفت عن رهب التبديل والشوب
ظننت أني بك أنجو غداً يا توبتي توبي عن التوب

ويتجلى معنى التوبة المطلق، بأوضح مما سبق بالاستهلاك في عين الجمع كما في قول ابن عربي⁽²³⁾:

لا ينيب الفؤاد إلا إذا ما لم يشاهد بذكر ما سواه

وفي قوله أيضاً⁽²⁴⁾:

ما فاز بالتوبة إلا الذي قد تاب منها والورى نوم

4 - حصيلة البحث:

لقد قدّم هذا البحث دراسة مقام التوبة في الشعر الصوفي وفق ما جاء عند أغلب المتصوفة وعني بإبراز أهم الخصائص الفنية لشعر مقام التوبة فخلص إلى أن هذا الشعر الذي يتناول مقام التوبة بقي متأثراً بالأساليب الوعظية المباشرة في الأغلب الأعم ويتبع شعر الزهد والأخلاق الدينية في الغالب بحيث يقترب من الشعر التعليمي في كثير من الأحيان. كما بدا لنا أن الأسلوب الإنشائي هو المسيطر على هذا اللون من الشعر ممثلاً في الأمر والطلب والنداء والدعاء وغير ذلك من الأساليب الإنشائية.

الهوامش:

- 1 - عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي، ط2، دار الجليل، بيروت 1990، ص 20.
- 2 - سورة الأحزاب، الآية 13.
- 3 - جمال الدين بن منظور: لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت 1990 مادة قوم، ج12، ص 497 - 498.
- 4 - القشيري: المصدر السابق، ص 56 - 57.
- 5 - ابن عربي: الفتوحات المكية، تحقيق د. عثمان يحيى، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985، ج2، ص 157.
- 6 - المصدر نفسه، ص 385.
- 7 - أبو نصر السراج الطوسي: اللمع، تحقيق د. عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتاب الحديثة، القاهرة 1960، ص 65 - 105.
- 8 - القشيري: المصدر السابق، ص 168.
- 9 - محمد مهدي النراقي: جامع السعادات، مكتبة الداوري، مطبعة النجف، قم 1963، ج3، ص 49.
- 10 - الإمام أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج12، ص 11.

- 11 - عباس إقبالي: المجاني من النصوص العرفانية، ط2، منظمة سمت، طهران 1385هـ، ص 44 - 45.
- 12 - الحسين بن منصور الحلاج: ديوان الحلاج، تحقيق د. كامل مصطفى الشبيبي، ط2، دار آفاق عربية، بغداد 1984م، ص 25.
- 13 - أبو حامد الغزالي: معارج القدس في مدارج النفس وتليها القصيدة الهائية والقصيدة الثائية، المكتبة العالمية، بغداد، (د.ت)، ص 193 - 194.
- 14 - عبد الكريم بن هوازن القشيري: أربع رسائل في التصوف، كتاب التوبة، تحقيق د. قاسم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 17، بغداد 1969، ص 282.
- 15 - المصدر نفسه، مج 17، ص 283.
- 16 - الحلاج: الديوان، ص 3.
- 17 - محمد مهدي النزائي: المصدر السابق، ج3، ص 88.
- 18 - عباس إقبالي: المصدر السابق، ص 53.
- 19 - عبد القاهر بن عبد الله السهروردي البغدادي: عوارف المعارف، ملحق بنهاية الجزء الخامس من إحياء علوم الدين للغزالي، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ص 305.
- 20 - المصدر نفسه.
- 21 - محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: مدارج السالكين، تحقيق محمد المعتمد بالله البغدادي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت 1994م، ج1، ص 280.
- 22 - عبد الكريم بن هوازن القشيري: أربع رسائل في التصوف، كتاب التوبة، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 17، ص 283.
- 23 - محي الدين بن عربي: الديوان الكبير، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت)، ص 22.
- 24 - المصدر نفسه.

الإحالة إلى المقال:

* جواد غلام علي زاده: المقامات في الشعر الصوفي مقام التوبة نموذجاً، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد العاشر 2010، ص 151 - 159.

<http://Annales.univ-mosta.dz>